

التبيان في تفسير القرآن

(268) الذين لا يؤمنون " أنه يجعل الرجس على هؤلاء كما يجعل ضيق الصدر في قلوب أولئك وان كل ذلك على وجه الاستحقاق. ولا يجوز أن يكون المراد بالاية ان الله تعالى يجعل سبب الايمان الذي يكون به الايمان، وسبب الكفر الذي يكون به الكفر، وانهما جميعا من فعل الله على ما يقوله المجبرة، وذلك أن الله تعالى أنزل القرآن حجة له على عباده، لا حجة للعباد عليه، فلو كان كما قالوه لكانت الحجة عليه لاله على انه لا يجوز أن يكون في كلام الله تعالى مناقضة، وقد ذكره الله تعالى في مواضع أنه هدى للكفار نحو قوله " وأما ثمود فهديناهم فاستحقوا العمى على الهدى " (1) وقال " وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة " (2) وقال " وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى " (3) وقال " قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها " (4) فبين بجميع ذلك انه تعالى هدى الكفار كما هدى المؤمنين، فكيف ينفي ذلك في موضع آخر، وهل ذلك الا مناقضة وكلام الله منزله عنها؟ ! ومتى حملنا الايات على ما قلناه ووفقنا بينها لم يؤد إلى المناقضة ولا التضاد، ويقوي ذلك ان الله اخبر انه يجعل قلب الكافر ضيقا حرجا ونحن نجد كثيرا من الكفار غير ضيقي الصدر بما هم فيه من الكفر بل هم في غاية السرور والفرح بذلك، فكيف يقال ان الله تعالى ضيق صدورهم بالكفر؟ ! ولا يلزمنا ذلك اذا قلنا ان الله يفعل ذلك بهم على وجه العقوبة لانه تعالى اذا كان يفعل بهم ذلك عقوبة يجوز أن يفعل بهم ذلك اذا أراد عقابهم لافي جميع الاحوال، ولا يلزم ان يجدوا نفوسهم على ذلك في كل وقت. وأيضا فان سبب القبيح لا يكون الا قبيحا فعلى هذا سبب الكفر يجب ان يكون قبيحا، لانه موجب له لا يصلح لصدقه من الايمان، لانه لو صلح لذلك لم يكن سببا، والله تعالى لا يفعل _____ (1) سورة 41 حم السجدة آية 17 (2) سورة 90 البلد آية 10 - 11 (3) سورة 17 الاسرى آية 94 وسورة 18 الكهف آية 56 (4) سورة 6 الانعام آية 104